

إسهام مدارس تلمسان في الحركة العلمية بالمغرب الأوسط
خلال القرنين (8هـ-9هـ / 14م-15م).

**The contribution of Tlemcen schools to the scientific movement in the
Central Maghreb During (8 AH-9 AH / 14 AD-15AD).**

عائشة بوشقيف

طالبة دكتوراه قسم التاريخ جامعة أبو بكر بلقايد تلمسان

بإشراف أ.د/ مبخوت بودواية.

الملخص:

عرفت مدينة تلمسان خلال القرنين (8هـ-9هـ / 14م-15م) حركة علمية لا مثيل لها، ضاهت بها مختلف حواضر الأقطار الإسلامية مما جعلها قبلة لطلبة العلم الذين توافدوا عليها من كل مكان، وهاجر إليها العلماء الذين تولوا التدريس بمدارسها المشهورة، التي دفعت بالحركة الفكرية والثقافية إلى الأمام ويرجع الفضل في ذلك إلى اهتمام السلاطين بهذه المدارس والعناية بها، فكانوا ينشئونها ويقومون بترميمها، ووقف الأعباس عليها. ويهتمون أيضا بالمدرسين ويوفرون لهم كل السبل الناجحة للقيام بمهامهم على أتم وجه، ويوفرون للطلبة المسكن والمأوى و يزودونهم بنفائس الكتب، ونوادير المخطوطات في مختلف العلوم سواء النقلية (كالفقه والتفسير والحديث والآداب) ، والعقلية (كالرياضيات و لم الفلك والمنطق والطب...).

الكلمات المفتاحية: المدرسة النظامية؛ تلمسان؛ الدولة الزيانية؛ العلماء؛ العلوم.

Abstract :

During the two centuries (8 AH / 14 AD / 15 AD), Tlemcen knew an unparalleled scientific movement, which was matched by the various metropolises of Islamic countries, which made it a destination for students of knowledge who flocked to it from everywhere, and the scholars who taught in its famous schools migrated to it, which prompted the movement. This is due to the interest of the sultans in these schools and taking care of them. They were establishing and renovating them, and endowing the confinement on them. They also take care of teachers and provide them with all successful ways to carry out their tasks to the fullest, and they provide housing and shelter for students and provide them with valuable books and manuscripts in various sciences, (jurisprudence, interpretation, hadith and literature; mathematics, astronomy, logic, medicine...).

Keywords : schools ; zianides ; Tlemcen, scholars, sciences.

تقديم:

شهدت مدينة تلمسان كبقية الحواضر ببلاد المغرب الإسلامي خلال القرنين (8هـ-9هـ/14م-15م) حركة علمية وفكرية هامة، كان لها تداعيات على الحياة التعليمية وجعلت منها قطبا ومنطقة جذب لطلبة العلم من مختلف حواضر الأقطار الإسلامية؛ وهاجر إليها العلماء الذين تولوا التدريس بمدارسها المشهورة يمكن القول أن المدرسة عبارة عن مؤسسة تعليمية رسمية بُنيت بأمر من السلطة الحاكمة وفق تخطيط محكم، لتؤدي وظائف تربوية واجتماعية وثقافية في المجتمع الزياني.

هذا و كان يُبنى بالقرب من المدارس المرافق الضرورية للوافدين عليها مثل غرف الطلبة وعابري السبيل والمكتبة لاقتناء الكتب، أما المصادر المالية لها فتمثلت في الأقباس والأوقاف⁽¹⁾، حيث كانت تستغل في دفع أجور المدرسين والعمال والترميم والصيانة.⁽²⁾

وظهرت المدرسة كمؤسسة تعليمية نظامية في مدينة تلمسان ابتداء من القرن الثامن الهجري الرابع عشر ميلادي، وقد اهتم الزيانيون لإنشائها بهدف نشر التعليم والثقافة ورفع مستوى الوعي للوعية وتوجيههم لخدمة المجتمع، وقد اقتدى ملوك بنو زيان بنظام بلاد المشرق في إنشاء مدارسهم، كون أهل المشرق كانوا السابقين في إنشاءهم للمدارس وأشهرها المدرسة النظامية ببغداد التي أسسها الوزير السلجوقي نظام الملك⁽³⁾ (456هـ-485هـ/1046م-1092م).

هذا واشتهرت بلاد المغرب الأوسط بكثرة المدارس، خاصة في مدينة تلمسان المعروفة بمدارسها الخمس، فكانت بمثابة معاهد عليا للتعليم في شتى المجالات، وقد عدها الحسن الوزان أثناء رحلته إلى تلمسان مع مطلع القرن (10هـ/16م)⁽⁴⁾، حيث ساهمت بشكل فعال في نمو وازدهار الحركة التعليمية ودفعها إلى الأمام أثناء فترة حكم بني زيان، وأهم المدارس التي عرفتها تلمسان الحاضرة هي:

- مدرسة ابني الإمام:

تُعرف كذلك بالمدرسة القديمة، وهي أول مدرسة بُنيت بتلمسان بالقرب من باب كشوطة، أسسها السلطان الزياني أبو حمو موسى الأول (ت 718هـ/1318م)، سنة (710هـ/1310م)⁽⁵⁾، وعيّن للتدريس فيها ابني الإمام أبي زيد عبد الرحمن (ت 743هـ/1342م)، وأخيه أبي موسى عيسى (ت 749هـ/1349م)⁽⁶⁾.

هذا وأصبحت المدرسة تُعرف باسميهما، قال فيهما ابن خلدون "و تركا بتلمسان خلقا كثيرا ينتحلون العلم كبيرا وصغيرا بلغ كثير منهم مقام التدريس والعلم والفتيا في النوازل نجابة و درس ونظر"⁽⁷⁾، وبما أن هذه المدرسة هي أول مركز تعليمي رسمي في حاضرة بني زيان، فقد عيّن للتدريس فيها كبار العلماء الذين قادوا الحركة العلمية إلى الأمام خلال القرن 8هـ/14م ولم يبق من هذه المدرسة اليوم سوى المسجد الصغير بمنارته الذي أسس بجانبها، ويُعرف عند أهل تلمسان باسم "مسجد ولاد ليمام" بالقرب من باب الجياد.

- المدرسة التاشفينية:

أسسها السلطان "أبوتاشفين عبد الرحمن الأول"، بالقرب من المسجد الكبير بتلمسان واعتبرت هذه المدرسة أهم مدرسة بالمغرب الأوسط، و درس بها العالم الفقيه أبي موسى عمران المشدالي الزواوي، أعرف أهل عصره بمذهب الإمام مالك⁽⁸⁾.

وجهر السلطان لبنائها أمهر البنائين والمهندسين والفنانين، أصحاب الكفاءات والمهارات العالية في البناء والزخرفة والتزيين، فكانت هذه المدرسة الجلييلة عديمة النظر ولقد اعتبر الحافظ التنسي يوم تدشينها يوما عظيما ومشهودا، خضره العلماء والفقهاء وأدباء تلمسان.⁽⁹⁾

وظلت هذه المدرسة تمثل أضخم مدرسة بالمغرب الأوسط، تقدم وظيفتها التعليمية مدة خمسة قرون، إلى أن قامت السلطات الاستعمارية سنة 1876م، بتهديمها دون إعطاء قيمة للفن والتاريخ، ونقلت بعض آثارها إلى متحف تلمسان، ومتحف كولوني بباريس.

- مدرسة أبي مدين شعيب الغوثي بالعباد:

أسس هذه المدرسة السلطان المريني أبو الحسن سنة (748هـ/1347م)⁽¹⁰⁾ بقرية العباد، قرب مسجد و ضريح الولي أبي مدين شعيب (ت 594هـ/1197م)، بعد استيلائه على مدينة تلمسان سنة (737هـ/1336م) وكانت مكونة من طابقين سفلي و لوي، وكان بهما غرف وحجرات لتدريس الطلبة. وتميزت هذه المدرسة بفنها المعماري وزخرفتها، ومرافقها المتعددة التي كانت مسخرة لخدمة المدرسين والوافدين من الطلبة وهي لا تزال قائمة إلى يومنا هذا تشهد على مدى ازدهار العمارة الإسلامية المرينية بالمغرب الأوسط.

- مدرسة سيدي الحلوي:

بنى هذه المدرسة السلطان أبو عنان فارس المريني إلى جانب مسجد و زاوية و ضريح الولي "أبي عبد الله الشوزي الإشبيلي" المعروف بسيدي الحلوي سنة (754هـ/1344م)⁽¹¹⁾، وعين للتدريس في هذه المدرسة العالم الكبير "أبي عبد الله المقرئ" المعروف بالجد.

- المدرسة اليعقوبية:

أسس هذه المدرسة السلطان أبو حمو موسى الثاني سنة (765هـ/1363م) و سميت باليعقوبية تخليدا لذكرى والده أبي يعقوب يوسف الذي كان حاكما لمدينة الجزائر و توفي سنة (763هـ/1362م)، فأمر ابنه بأن يُدفن بعد موته في رياض يقع بباب إيلان⁽¹²⁾، ثم نقل إلى جواره وفاة عميه "أبي سعيد" و "أبي ثابت"، من قبريهما بالعباد، ثم بدأ في بناء هذه المدرسة قرب أضرحتهم.

وبعد إتمام بنائها استدعى العالم الإمام الشيخ الشريف الحسني أبي عبد الله (ت 771هـ/1370م) للقيام بمهمة التدريس فيها⁽¹³⁾، و كان أبو حمو موسى الثاني يحضر مجالس إلقاء هذا العالم فيها جالسا على الحصر تواضعا للعلم. و تاريخ إنشاء المدرسة اليعقوبية وقع فيه اختلاف، حيث يذكر يحيى بن خلدون صاحب كتاب بغية الرواد بأن تأسيس هذه المدرسة كان في شهر شعبان سنة (763هـ/1368م)⁽¹⁴⁾، بينما يرى التنسي صاحب كتاب نظم الدر و العقيان بأنها أنشئت سنة (760هـ/1359م)، و كان تاريخ افتتاحها عام (765هـ/1364م) للتدريس فيها. و التاريخ الذي ذكره يحيى بن خلدون هو المرجح لأنه كان معاصر لبناء هذه المدرسة و كان أيضا من رجالات بلاط السلطان أبي حمو و مُلماً بما كان يجري في مدينة تلمسان من أحداث.

و تميزت المدرسة اليعقوبية بأبهة البناء وسعة الفناء، و في هذا الصدد يقول يحيى بن خلدون "ولّى شطرها بصر الاختيار و مد إليها يد الإنفاق، فضاعف بها الفعلة و أحمد المغارس و أسمك المصانع و أرحب الأبنية، و حبر الغروس واستجلب المياه وأجزل الأوقاف و عين الجرايات و رسم فيها الخطط"⁽¹⁵⁾.

ووصفها أحد المؤرخين قائلا: "و أنشأ مدرسة القرآن و العلوم و أنفق فيها من الحلال المعلوم، فأقيمت مدرسة مليحة البناء واسعة الفناء، بُنيت بضروب من الصناعات، ووضعت في أبداع الموضوعات سمكها بالصبغة مرموق، و بساط أرضها بالزليج مرسوم غرس بإزائها بساتين يكتنفها، وضع فيها صهريجا مستطيلا و على طرفيه من الرخام خصتان يطردان مسيلا، فبالها من بنية، ما أبهجها"⁽¹⁶⁾.

هذا واهتم السلطان أبو حمو موسى الثاني بموظفي وطلبة المدرسة اليعقوبية فأغدق عليهم بالأرزاق، وعين لهم رواتب تيسر لهم طريق العلم.

● نظام التعليم ومراحله في المدارس التلمسانية:

يعد التعليم من العوامل الأساسية الهامة التي دفعت عجلة الحركة الفكرية نحو التقدم والتطور والازدهار وترقية العلوم والآداب ونشر الثقافة والعلم بين أفراد المجتمع، وترقيته سلوكيا وحضاريا، وكان التعليم ببلاد المغرب الأوسط يمر بثلاث مراحل تعليمية، أولها المرحلة الابتدائية ثم المرحلة الثانوية ثم المرحلة الأخيرة، ألا وهي مرحلة التعليم العالي.

و لقد سار التعليم في المغرب الأوسط خلال القرن (9هـ/15م) على هذا النظام ففي المرحلة الابتدائية كان التعليم يقتصر على تعليم القراءة والكتابة و تحفيظ القرآن الكريم للصبيان، وكان يتم ذلك في الكتاتيب والمساجد والزوايا.⁽¹⁷⁾ فكان المعلم حريصا على تحفيظ القرآن للصبيان وتعليمهم الهجاء والشكل والخط الحسن والقراءة و يتفقد من حين إلى آخر حفظهم للصور القرآنية في الفترة المسائية من يوم الأربعاء والخميس، و كان يعلمهم أيضا أمور العبادة كالوضوء والصلاة.

و هذه الطريقة من التعلم استحسنها ابن خلدون، و رأى بأن تعلم القرآن الكريم هو أصل التعليم، و أول ما يجب على الصبيان تعلمه فبه تُبنى الملكات⁽¹⁸⁾، و أورد أيضا بأن أهل المغرب كانوا يقتصرون على تعليم أبنائهم تحفيظ القرآن الكريم وقراءاته المختلفة والكتابة، و أحيانا يضيفون إليه شيئا من الفقه أو الحديث أو الشعر.

هذا ما جعل أهل المغرب أقوى على حفظ القرآن و رسمه من سواهم أما المرحلة الثانية و هي مرحلة التعليم الثانوي فكانت تتم في المساجد الجامعة و المدارس، حيث يُقْبَل الطلاب على دراسة تفسير القرآن و الفقه، و علوم اللغة من نحو و آداب، مما يمكنهم من مواصلة المرحلة الأخيرة من التعليم و هي مرحلة التعليم العالي، و معرفة أمور دينهم و الإمام بمختلف العلوم سواء الدينية أو الأدبية.⁽¹⁹⁾

أما المرحلة الأخيرة (مرحلة التعليم العالي)، فكان للطالب الحق في إختيار التخصص الذي ريده، لهذا كان معظم الطلبة يتجهون للعلوم الدينية كالإمام بتفسير القرآن وعلومه من قراءات و رسم و معرفة علوم الحديث و الفقه خاصة المالكي.

و كان للطلاب أيضا الحق في اختيار أساتذتهم و أوقات دروسهم و مدة بقائهم في المؤسسة التعليمية (المدرسة)، وبعد تضلع الطلبة في العلوم يرتحلون إلى بلدان أخرى سواء ببلاد المشرق كمصر ودمشق وبغداد و المدينة المنورة أو بلاد المغرب كتونس و فاس و مراكش، للقاء أشهر علمائها للأخذ منهم و توسيع معارفهم و نبوغ فكرهم، و في هذا الصدد قال ابن خلدون: "إن البشر يأخذون معارفهم و أخلاقهم و ما ينتحلون به من المذاهب و الفضائل تارة علما و تعليما و إلقاء و تارة محاكاة و تلقينا بالمباشرة، إلا أن حصول الملكات عن المباشرة و التلقين أشد استحكاما و أقوى رسوخا، فعلى قدر كثرة الشيوخ يكون حصول الملكات و رسوخها... فالرحلة لأبد منها في طلب العلم لاكتساب الفوائد و الكمال، بلقاء المشايخ، و مباشرة الرجال..."⁽²⁰⁾.

● طرق التعليم:

كانت طريقة التعليم المعتمدة في العهد الزياني تتمثل في الإلقاء والشرح، و هو أن يقوم أحد الطلاب النجباء من ذوي النباهة و الذكاء في حلقة الدرس، بقراءة نص من كتاب مشهور التداول في المادة المراد دراستها، ثم يقوم الأستاذ بشرحه و تحليله على شكل فقرات حسب ما يتصف به الأستاذ من غزارة الحفظ و سعة الاطلاع.⁽²¹⁾ أما الطلبة فيستمعون و يدونون ما شرحه الأستاذ وأجوبة الأسئلة التي ألقوها عليه، و عدت هذه الطريقة من أحسن الطرق التعليمية مما كانت عليه في غيرها من الحواضر الأخرى كفاس و مراكش و القيروان.

أما في القرن (8هـ و 9هـ) تغيرت طريقة التعليم، حيث أصبح طلبة العلم يأخذون العلوم أو كل حسب قدراته معتمدين على قوة الحفظ والذاكرة، لكن دون مناقشة وتحليل ثم يناظرون و يجادلون بعد ذلك المسائل الصعبة، فهذه الطريقة من التعليم أكسبت الطلبة قوة البحث والمناظرة، وقال ابن خلدون: "و أيسر طرق حصول الملكة إنما يكون بفتق اللسان بالمحاورة والمناظرة في المسائل العلمية، فهو الذي يقرب شأنها ويحصل مرامها..."⁽²²⁾ و بفضل هذه الطريقة صار الأساتذة يخاطبون طلابهم حسب ما لديهم من معلومات و ما يتمتعون به من ذكاء و قوة الإستيعاب مما ساهم في انتشار العلوم و ازدهارها ازدهارا كبيرا في تلمسان و جميع انحاء بلاد المغرب الأوسط.

● أشهر العلماء المدرسين بمدارس تلمسان:

اشتهرت المدارس الزيانية بمدينة تلمسان بمُدرّسيها الذين اعتبروا من أشهر العلماء و نذكر منهم:

- ابني الإمام:

أكبرهما أبو زد عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله، عرف بابن الإمام هو و أخوه أبو موسى عيسى، نشأ بمدينة برشك التي كان والدهما إماما بها، اشتهرا بالرسوخ في العلم والاجتهاد والاستقامة والتقوى، رحلا إلى تونس من أجل العلم، ثم ذهبا إلى فاس ثم رجعا إلى بلاد المغرب الأوسط، ثم توجهوا إلى البقاع المقدسة من أجل أداء فريضة الحج ثم رجعا إلى تلمسان بزاد علمي واسع في مختلف العلوم، فأكرمهما السلطان أبو حمو موسى الأول، واهتم بهما و بنى لهما مدرسة سميت باسمهما "ابني الإمام" فدرسا بها، و كانت لهما مكانة كبيرة في الأوساط العلمية سواء شرقا أو غربا، حيث قال فيهما الونشريسي: "هما الشيخان الراسخان الشامخان العالمان المفتيان، الفقيه العلامة آخر صدور أعلام المغرب بشهادة أهل الإنصاف شرقا و غربا أبو زيد، و العلامة النضار آخر أهل النظر جامع شتات المعارف أبو موسى"⁽²³⁾، و قال فيهما المقرئ: "كان أبو زيد من العلماء الذين يخشون الله، حدثي أمير المؤمنين المتوكل ابن عنان أن والده أمير المسلمين أبا الحسن ندب الناس إلى الإعانة بأموالهم على الجهاد، فقال له أبو زيد: "لا يصح لك هذا حتى تكنس بيت المال، و تصلي ركعتين كما فعل علي بن أبي طالب"⁽²⁴⁾، و بعد حياة مليئة بالعلم والدين، توفي أبو زيد بن الإمام سنة (743هـ/1342م) و دفن بتلمسان، ثم توفي من بعده أخيه موسى من جراء الطاعون سنة (749هـ/1348م).

- أبو موسى عمران المشدالي (ت 745هـ/1344م):

أصله من مدينة بجاية و انتقل إلى تلمسان فعينه السلطان أبوتاشفين الأول للتدريس بمدرسته، فدرس العلوم الدينية كالفقه والفرائض والحديث.⁽²⁵⁾

- أبو عبد الله الأبلي (ت 757هـ/1356م):

هو أبو عبد الله محمد بن إبراهيم بن أحمد العبدري التلمساني المعروف بالأبلي و أصله من الأندلس ولد سنة (681هـ/1282م)، و اشتهر الأبلي بتحكمه في العلوم العقلية التي عكف على تعلمها و التضلع فيها، و كان للأبلي مكانة علمية مميزة في عصره، إذ يقول فيه تلميذه يحيى بن خلدون: "و شيخنا العالم الأعلى الشيخ أبو عبد الله محمد بن إبراهيم الأبلي، المعلم الأصغر، من بيت نباهة في الجند...و كان طالبا للعلم، جماعة لكتبه فعكف عنده على النظر إلى أن فاق أهل زمانه في العلوم العقلية كلها حتى أنني لا أعرف بالمغرب و إفريقية فقيها كبيرا إلا و له عليه مشيخة"⁽²⁶⁾، و وصفه أيضا عبد الرحمن بن خلدون قائلا: "و هو سيدنا و مولانا الإمام الكبير العالم العلامة فخر الدنيا، حجة الإسلام و المسلمين غياث النفوس، أبو عبد الله محمد بن إبراهيم الأبلي رضي الله عن مقامه و أوزعني شكر إنعامه، شيخ الجلالة وإمامها ومبدأ المعارف و ختامها أفاض علينا سيب علومه وحلانا بمنثور دره و منظومه..."⁽²⁷⁾.

- أبو عبد الله محمد الشريف التلمساني (771هـ/1370م):
هو محمد بن أحمد بن علي الشريف الإدريسي، يكنى بأبي عبد الله و إسم شهرته الشريف التلمساني، ولد سنة (710هـ/1310م) من أسرة تنتمي إلى الأشراف، و كان للشريف التلمساني مكانة علمية شهيد له بها شيوخه وتلاميذه، نظرا لاجتهاده في العلوم، إذ قال عنه الأبلي: "قرأ عليا كثيرا شرقا وغربا فما رأيت أنجب من رابعة أعقلهم وأكثرهم تحصيلًا" أبو عبد الله الشريف⁽²⁸⁾، وقام السلطان أبو حمو موسى الثاني بإكرامه فزوجه ابنته وبني له المدرسة اليعقوبية سنة (756هـ/1364م) وكلفه بالتدريس فيها، بقي ينشر العلم قراءة و تأليفا ونسخا إلى أن وافته المنية سنة 1369م.
- أبو زكريا يحيى بن خلدون (ت 780هـ)
هو يحيى بن محمد بن محمد بن الحسن بن محمد بن جابر بن محمد بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن خلدون، ولد بتونس سنة (734هـ/1333م) من عائلة أندلسية و التي عرفت بكثرة علمائها، فكان مهتما بالعلوم الدينية و الأدب و الشعر فأخذ عن العلماء حفظ القرآن الكريم و علم القراءات و العلوم العقلية التي أخذها عن علماء المغرب الإسلامي وأشهرهم أبي عبد الله السلطي (ت 750هـ) الذي عرف بتضلعه في الفقه على مذهب مالك، و أبي عبد الله محمد بن محمد الصباغ الذي كان ذو باع كبير في علم الحديث.⁽²⁹⁾
- أحمد بن زاغو (ت 849هـ):
هو أحمد بن محمد بن عبد الرحمن الشهير بابن زاغو المغراوي التلمساني ولد في حدود سنة (782هـ) بتلمسان، نشأ بمسقط رأسه و تعلم في المدارس و المساجد، و أخذ على مجموعة من العلماء أشهرهم: أبي عثمان سعيد العقباني (ت 811هـ/1408م)، وُصِفَ بالمفتي المصنف، المدرس، المؤلف، الذي عُدَّ أعلم الناس في التفسير و تفوقه على أقرانه في مذهب مالك و تألقه في علم الحديث و الأصول و قدم راسخة في التصوف، و أفاد بعلمه الغزير الكثير من طلبة المدرسة اليعقوبية التي كان يدرسه فيها التفسير و الحساب و الفرائض و الهندسة.⁽³⁰⁾
- العلوم المدرسة بمدارس تلمسان:
اشتهرت مدارس تلمسان الزيانية بعلومها المختلفة سواء النقلية أو العقلية.
- العلوم النقلية:
أما العلوم النقلية التي تتمثل في العلوم الدينية و هي العلوم الشرعية التي اتخذت من القرآن والسنة مصدرا و منطلقا لها و في مقدمتها تفسير القرآن الكريم إذ إهتم الزيانيون بالقرآن الكريم و دراسته وحفظه و تفسيره فاتخذ المفسرون القرآن الكريم في إتجاهين فالإتجاه الأول هو التفسير المأثور والمنقول و يستند إلى الآثار المنقولة عن النبي صلى الله عليه و سلم، أما الإتجاه الثاني فيرتكز على الرأي و الاجتهاد و لا يتحقق ذلك إلا بالتمكن من اللغة العربية، حتى يتمكن المفسر من تأدية المعنى بحسب المقاصد و الأساليب لأن القرآن الكريم نزل بها.⁽³¹⁾
- أما علم القراءات فتضمن عدة فروع و هي فن القراءات و فن الرسم و يتضمن أيضا أوضاع حروف القرآن في المصحف و رسومه الخطية، أما علم الحديث فيراد به حفظ ما نقل عن الرسول صلى الله عليه و سلم من قول أو فعل أو تقرير و ما نقل عن أصحابه، و لقد اهتم علماء تلمسان بعلم الحديث لما له من قيمة كبيرة في الدين الإسلامي باعتباره يأتي في المرتبة الثانية بعد القرآن الكريم، فتوسعوا في دراسته، و كانت تعقد مجالس عديدة يحضرها عامة الناس بما في ذلك الشيوخ و الطلبة.⁽³²⁾
- و كان الاهتمام كبيرا بعلم الفقه و الذي عرفه ابن خلدون بقوله: "هو معرفة أحكام الله تعالى في أفعال المكلفين بالوجوب و الحظر و الندب و الكراهة و الإباحة و هي متلقاة من الكتاب و السنة، و ما نصبه الشارع لمعرفة من الأدلة

فإذا استخرجت الأحكام من تلك الأدلة قيل لها فقه، فهو يتناول جميع المسائل التي تواجه الإنسان في حياته الشخصية والدينية والاجتماعية والاقتصادية ويضع القواعد التي تنظم حياته⁽³³⁾، إضافة إلى علوم أخرى مثل علم الكلام الذي كان يتناول المسائل الدقيقة في الدين الإسلامي من التوحيد والصفات الإلهية وحقيقة النبوة والقرآن الكريم، كما انتشر في عهد الموحدين علم التصوف ويقصد به العبادة والزهد والبعد عن ملذات الدنيا والتفرغ للعبادة.

هذا واهتم الزبانيون بالعلوم اللسانية التي تتضمن اللغة العربية التي اعتبرت من أغنى اللغات وأرقاها، لما تتميز به من كثرة المفردات واتصفت بالمرونة والقدرة على صياغة المشتقات من ألفاظها، وبذلك حظيت الدراسات اللغوية باهتمام علماء وأدباء تلمسان، فكانوا يختصرون ويعللون وينظمون الأراجيز ويجمعون ويبسطون المؤلفات، ويشرحون الكتب الصعبة ويحلونها وينتقدونها⁽³⁴⁾، إضافة إلى الأدب الذي شمل الشعر والنثر، وعرف ابن خلدون الأدب قائلا: "أعلم أن لسان العرب وكلامهم على فنين في الشعر المنظوم وهو الكلام الموزون والمقفى، ومعناه الذي تكون أوزانه كلها على روي واحد وهو القافية، وفي النثر وهو الكلام غير الموزون وكل واحد من الفنين يشتمل على فنون ومذاهب في الكلام"⁽³⁵⁾.

وقسم القدماء النثر إلى أشكال أدبية بما في ذلك الخطابة والحديث وانحصرت أعمال النثر في مدينة تلمسان في الرسائل وعدد الكتب التاريخية والأدبية نظرا لاندثار معظم الأعمال النثرية الأخرى لا سيما فن المقامات والخطب، وبلغ هذا الفن في تلمسان في القرنين 8 و 9 الهجريين درجة كبيرة ومنزلة هامة، فبرز فيه مجموعة من كتاب تلمسان ذاع صيتهم في أقطار المغرب والمشرق الإسلامي، وأشهرهم أبو بكر بن الخطاب المرسي الأندلسي سنة (688هـ/1289م) والذي ترك أثرا كبيرا في فن الكتابة بتلمسان في عهد يغمراسن بن زيان⁽³⁶⁾، واشتهر أيضا ابن مرزوق الخطيب (ت 780هـ/1378م) والمقري الجد (ت 759هـ/1356م) والشريف التلمساني (771هـ/1370م) أما بالنسبة للشعر فهو فن من فنون كلام العرب، مفضل إلى قطع متساوية في الوزن ومتحددة في الحرف الأخير من كل قطعة وتسمى كل قطعة من هذه القطع بيتا ويُسَمَّى الحرف الأخير الذي تتفق به رويًا وقافية ويسمى جملة الكلام إلى آخره قصيدة⁽³⁷⁾.

ولقد ازدهر الشعر بتلمسان في العهد الزياني ازدهارا ملحوظا كغيره من العلوم والفنون المختلفة، ومن أبرز الشعراء ابن مرزوق الخطيب ويحيى بن خلدون (ت 780هـ)⁽³⁸⁾.

اهتم الزيانيون أيضا بالتاريخ لتسجيل الأحداث من غزوات وفتوحات فبرز مجموعة من المؤرخين الزيانيين والذين دونوا مصنفات في تاريخ دولتهم وحضارتهم، وتناولوا فنون التاريخ وفروعه كالسير والتراجم وتاريخ الملوك والخطط وغيرها من المصنفات ذات الصلة بالتاريخ ومن أشهر مؤلفات المؤرخين الزيانيين أبي زكريا يحيى بن خلدون الذي ألف "بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد"، وتعرض إلى تاريخ دولة بني عبد الواد منذ النشأ⁽³⁹⁾. واشتهر في التاريخ أيضا ابن مرزوق الخطيب في كتابه "المسند الصحيح الحسن في مآثر مولانا أبي الحسن"، والذي جعله بمثابة السيرة الذاتية للسلطان أبي الحسن المريني، وتخللته بعض الأحداث الخاصة بتاريخ بني زيان وبني مرين، إضافة إلى كتابه "نظم الدر والعقيان في بيان شرف بني زيان" للحافظ محمد بن عبد الله التنسي (ت 899هـ).

● العلوم العقلية:

أما العلوم العقلية فشملت العلوم العددية من (فرائض وحساب وجبر وهندسة): والمنطق والطب والكيمياء والفلك وعرفت هذه العلوم ازدهارا ملحوظا بفضل نشاط العلماء وبتشجيع من السلاطين والحكام وقد عرف ابن خلدون علم المنطق قائلا: "هو قوانين يعرف بها الصحيح من الفاسد في الحدود المعروفة للماهيات والحجج المفيدة للتصديقات"⁽⁴⁰⁾، ومن أشهر العلماء الزيانيين الذين اهتموا بهذا العلم نذكر ابن مرزوق الحفيد (ت 842هـ)،

ومحمد بن عبد الكريم المغيلي التلمساني (ت 909هـ) و محمد بن يوسف السنوسي (ت 895م) الذي ألف شرح مختصر ابن عرفة و مختصر علم المنطق.⁽⁴¹⁾

أما بالنسبة للرياضيات فقد أدت دورا بالغ الأهمية في العلوم العقلية و عرفها ابن خلدون قائلا: "إنما المعرف خواص الأعداد من حيث التأليف إما على التوالي أو بالتضعيف"، و من أشهر المصنفات التي كانت تستخدم في العلوم العددية بتلمسان خلال العهد الزياني "أرجوزة ابن الياسمين"⁽⁴²⁾ في الجبر و "تلخيص أعمال الحساب" لابن البناء (ت 721هـ).⁽⁴³⁾ برز في العلوم العددية الشيخ القاضي سعيد بن محمد العقباني التلمساني (811هـ/1418م)، الذي قام بشرح كتاب الحوفي⁽⁴⁴⁾ في الفرائض، و شرح تلخيص ابن البناء، و قصيدة ابن الياسمين في الجبر والمقابلة.

أما بالنسبة لعلم الفلك فيدرس حركة الكواكب الثابتة و المتحركة و المتحيزة بطرق هندسية و من فروع علم حساب حركة الكواكب لتحديد موقعها⁽⁴⁵⁾، و اشتهر من علماء تلمسان في علم الفلك وتخصصوا فيه "محمد بن أحمد التلمساني" المعروف بالحبك (ت 867هـ/1462م)، الذي تميز بتدريس علم الإسطرلاب ووضعه فيه أرجوزة سماها "بغية الطلاب في علم الإسطرلاب"، و محمد بن يوسف السنوسي الذي قام بشرح قصيدة أستاذة الحبك، و سماها "عمدة ذوي الألباب و نزهة الطلاب في شرح بغية الطلاب في علم الإسطرلاب"، و إلى جانب هذه العلوم اهتم الزيانيون بالعلوم الطبيعية بما في ذلك الطب و علم الفلاحة والكيمياء.⁽⁴⁶⁾

خاتمة:

كان للمدارس الزيانية الفضل الكبير في تطور و ازدهار الحركة الفكرية و الثقافية بالمغرب الأوسط، إذ توافد عليها الطلبة من مختلف الأقطار لينهلوا من علومها إضافة إلى توافد العلماء و الفقهاء للتدريس بها، كما كان للسلطين الزيانيين الدور الكبير في ازدهار هذه المدارس فبفضل عنايتهم و اهتمامهم وإشرافهم الشخصي على تعيين المدرسين بها و الاهتمام بالطلبة و توفير احتياجاتهم من مأوى و كتب، استطاعت المدارس القيام بدورها على أكمل وجه كما كثر عدد المدرسين بها، إضافة إلى تنوع العلوم من نقلية و أخرى عقلية.

كان هدف بني زيان من وراء بناء المدارس في حاضرتهم تلمسان هو نشر التعليم والثقافة من جهة، وتوجيه الرعية من أجل وحدة السياسة المنتهجة التي كانوا يسيرون عليها والمتمثلة في نصرة المذهب المالكي من جهة أخرى، لذلك كانت المدارس إحدى الوسائل لتحقيق هذه الغاية.

أما بالنسبة للعلوم المدرسة بمدارس تلمسان فقد اختلفت وتنوعت من علوم دينية وعلوم اللغة وعلوم عقلية وأخرى اجتماعية كما قام العلماء بالتصنيف و التأليف فيها، فكان لهم الدور الكبير في دفع الحركة العلمية و الثقافية إلى الأمام بالمغرب الأوسط خاصة و الغرب الإسلامي عامة.

الهوامش:

- (1) محمد بن عبد الجليل التنسي، نظم الدر و العقيان في بيان شرف بني زان، تح: محمود بوعبيد، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1985، ص 139.
- (2) الوثنيسي، المعيار المعرب و الجامع المغرب عن فتاوى علماء إفريقية و الأندلس و المغرب، ج 7، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1981، ص 262-264.
- (3) هو الحسن بن علي بن إسحاق أبو علي الملقب بقوام الدين أو نظام الملك وزير السلطان ألب أرسلان ثم لابنه ملكشاه، قُتل و هو يصلي بالموصل، علي محمد محمد الصلابي دولة السلاجقة و بروز مشروع إسلامي لمقاومة التغلغل الباطني و الغزو الصليبي، ط 1، دار التوزيع و النشر الإسلامية، القاهرة، 2006، ص 123-131.
- (4) حسن الوزان، وصف إفريقية، تح: محمد حجي، محمد الأخضر، ج 2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1983، ص 19-30.
- (5) Rachid Bouiba, l'art religieux, musulmans en algérie, Alger, 1973, p.p 75-77.
- (6) ابن مرزوق الخطيب، المسند الصحيح الحسن في مآثر و محاسن مولانا أبي الحسن، تح: ماريا خيسوسيفيرا، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، الجزائر، 1981، ص 252.
- (7) يحيى بن خلدون، بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، تح: عبد الحميد حاجيات، ج 2، المكتبة الوطنية، الجزائر، 1980، ص 130.
- (8) التنسي، المصدر السابق، ص 141.
- (9) التنسي، المصدر السابق، ص 140.
- (10) ابن مرزوق الخطيب، المصدر السابق، ص 406.
- (11) حسن الوزان، المصدر السابق، ص 187.
- (12) باب إيلان هو أحد أبواب تلمسان، كان يقع في وسطها و بعيدا عن الأسوار،
- Marçais (G) et william, les mouvement Arabes de Tlemcen fontemoing, paris, 1903, p117.
- (13) يحيى بن خلدون، المصدر السابق، ص 57.
- (14) يحيى بن خلدون، المصدر السابق، ص 200.
- (15) يحيى بن خلدون، المصدر السابق، ص 136.
- (16) حاجيات، أبو حمو موسى الزينان حياته و آثاره، ط 2، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، الجزائر، 1983، ص 182.
- (17) حاجيات، المرجع نفسه، ص 35.
- (18) عبد الرحمن بن خلدون، المقدمة، دار الفكر للطباعة و النشر و التوزيع، بيروت، لبنان، 1996، ص 740.
- (19) حاجيات، المرجع السابق، ص 35.
- (20) ابن خلدون، المصدر السابق، ص 744-745.
- (21) عبد الحميد حاجيات و آخرون، الجزائر في التاريخ، العهد الإسلامي، ج 3، وزارة الثقافة و السياحة و المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984، ص 438.
- (22) ابن خلدون، المصدر السابق، ص 743.
- (23) الوزير السراج، الحلل السندسية في الأخبار التونسية، تح: محمد الحبيب الهيلة، ج 1، الدار التونسية للنشر و التوزيع، تونس، 1970، ص 809-810.
- (24) المقري، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب و ذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب، تح: يوسف الشيخ محمد البقاعي، ج 7، ط 1، دار الفكر للطباعة و النشر و التوزيع، بيروت، 1988، ص 221.
- (25) يحيى بن خلدون، المصدر السابق، ج 1، ص 130.
- (26) يحيى بن خلدون، المصدر السابق، ص 51.
- (27) ابن مريم، المصدر السابق، ص 217.
- (28) التنيكتي، نيل الابتهاج، ص 430.
- (29) يحيى بن خلدون، المصدر السابق، ص 33.
- (30) التنيكتي، المصدر السابق، ص 120.
- (31) ابن خلدون، المصدر السابق، ج 2، ص 530.

- (32)- عبد العزيز فيلاي، تلمسان في العهد الزياني، ج1، موفم للنشر و التوزيع، الجزائر، 2002، ص 442.
- (33)- عبد الرحمن بن خلدون، المصدر السابق، ج2، ص 541.
- (34)- عبد العزيز فيلاي، المرجع السابق، ص 736.
- (35)- ابن خلدون، المصدر السابق، ص 127.
- (36)- التنسي، المصدر السابق، ص 127.
- (37)- ابن خلدون، المصدر السابق، ص 739.
- (38)- عبد العزيز فيلاي، المرجع السابق، ص 465-464.
- (39)- يحيى بن خلدون، المصدر السابق، ج2، ص 40-20.
- (40)- ابن خلدون، المصدر السابق، ص 913.
- (41)- عبد العزيز فيلاي، المرجع السابق، ص 478.
- (42)- عبد العزيز فيلاي، المرجع السابق، ص 470.
- (43)- عبد الحميد حاجيات و آخرون، المرجع السابق، ص 448-447.
- (44)- محمود بوعباد، جوانب من الحياة في المغرب الأوسط، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، 1982، ص 72.
- (45)- ابن خلدون، المصدر السابق، ج2، ص 601.
- (46)- محمود بوعباد، المرجع السابق، ص 88-85.